MINISTÈRE DE L'ÉDUCATION NATIONALE, DE L'ENSEIGNEMENT SUPÉRIEUR ET DE LA RECHERCHE

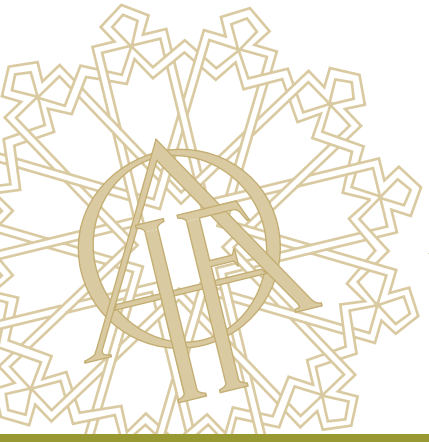

ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 34 (2001), p. 23-44

Maǧdī Ǧirǧis

qarn-l fī Qibṭ-al awḍāʿ ʿalā arāḫina-al Aṭar أثر الأراخنة على أوضاع القبط فى القرن الثامن عشر al-ṯāmin ʿašar.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724710885	*Musiciens, fêtes et piété populaire*	Christophe Vendries
9782724710540	*Catalogue général du Musée copte*	Dominique Bénazeth
9782724711233	*Mélanges de l'Institut dominicain d'études orientales 40*	Emmanuel Pisani (éd.)
9782724711424	*Le temple de Dendara XV*	Sylvie Cauville, Gaël Pollin, Oussama Bassiouni, Youssreya Hamed
9782724711417	*Le temple de Dendara XIV*	Sylvie Cauville, Gaël Pollin, Oussama Bassiouni
9782724711073	*Annales islamologiques 59*	
9782724711097	*La croisade*	Abbès Zouache
9782724710977	*???? ??? ???????*	Guillemette Andreu-Lanoë, Dominique Valbelle

© Institut français d'archéologie orientale - Le Caire

الأكثر من ذلك أن عادة التسرى كانت منتشرة بين كبار القبط، واستمرت هذه العادة حتى القرن التاسع عشر [٩١]، وكان دائماً يُحسب فى سجل الأعمال للبطاركة مناهضتهم لعادة التسرى [٩٢]، إلا أن بطاركة القرن الثامن عشر لم يصدر عنهم أى شجب لهذه العادة بالرغم من شيوعها، وهذه الأمور، حسبما نتصور، أضطرت الكنيسة إلى غض الطرف عنها، حتى لا تصطدم بكبار الأراخنة.

بالرغم مما قدمه الأراخنة للطائفة على وجه العموم، إلا أن نفوذهم كان له بعض الآثار السلبية ـ من الناحية الدينية ـ وطالما خشى رجال الدين من تعاظم الأراخنة وتعديهم على الشرعية، ولكن لم تسطع الكنيسة فى هذه الفترة انتقاد الأراخنة مباشرة.

خاتمـــة

كان للتغييرات السياسية والإدارية التى شهدتها الدولة العثمانية أثر واضح على تحول السلطة فى مصر إلى أيدى الأمراء المماليك ورجال الأوجاقات، وصاحب ذلك إرتفاع أسهم المباشرين القبط المشتغلين بخدمة ولاة الأمور وفى الدواوين المالية والإدارية للدولة، والذين وجهوا نفوذهم لخدمة شئون الطائفة؛ حتى تمخض هذا العصر عن حركة حضارية هامة فى تاريخ القبط؛ تمثلت فى تعمير معظم الكنائس والأديرة، وصاحبها حركة واسعة فى نسخ الكتب وترجمة بعضها ونهضة فى أساليب زخرفة المخطوطات ورسم الأيقونات، وبالرغم من بعض الآثار السلبية المترتبة على ازدياد نفوذ الأراخنة على حساب نفوذ الكنيسة، إلا انه لا يمكن إنكار الدور الكبير الذى لعبه الأراخنة فى هذه الفترة.

[٩١] يذكر الجبرتى شيوع التسرى بين القبط، وفى إحدى التركات المنظورة أمام البابا ديمتريوس الثانى (١٨٦٢ – ١٨٧٠م) كانت إحدى جوارى المتوفى «سرية له» مجدى جرجس: القضاء القبطى فى مصر، ص ٦١ ، ٦٢.

[٩٢] حول وقوف البطاركة أمام عادة التسرى وما لاقوه من صعاب، أنظر: مجدى جرجس: المرجع السابق، ص ٦١.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

مظاهر أخرى لأوضاع القبط

«لما صار جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى وهم الملاك النافذ أمرهم طنخوا وعتوا وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر وتكبروا وعزت نفوسهم... وصار أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيانية»[٨٧] هذه الشهادة سجلها كتاب السير فى جرأة، لرصد أحوال القبط فى القرن الحادى عشر الميلادى، ولكن لم يستطع أحد أن ينتقد سلوك الأراخنة فى القرن الثامن عشر، ويرجع سبب ذلك إلى أن الأراخنة أصبحوا أمام الإدارة الحكومية، وأمام عامة الشعب القبطى فى مكانة عالية فاقت مكانة رجال الدين. من ناحية أخرى فان طبيعة الإدارة المالية للكنيسة وموارد دخلها تركزت فى أيدى هؤلاء الأراخنة، ولايمكن أن تدرس المؤسسات الدينية بمعزل عن النواحى الإقتصادية، ونظراً لأن موارد الكهنة، بل والأساقفة أعتمدت بشكل كبير على مدى العلاقة الحسنة بينهم وبين وجهاء الطائفة؛ لذلك تسحبت منهم بعض السلطات لصالح الأراخنة، وترتب عليها بعض الآثار السلبية؛ وليس أدل على ذلك من أن الكهنة أصبحوا يدينون بالولاء للأراخنة أكثر من ولائهم لرؤسائهم الدينيين، فالقصة التى توردها المصادر الكنسية عن كيفية بناء كنيسة ابى السيفين فى حارة زويلة، والتى بنيت بسبب طلب المعلم ابراهيم جوهرى من أحد الكهنة الإسراع فى الصلاة حتى يلحق بالديوان، ورد الكاهن فى جرأة «المعلم فى السماء واحد والكنيسة لله وليست لأحد فان لم يعجبه فليبن له اخرى»[٨٨] هذه القصة تبين لنا كيف كان الكهنة يستجيبون لطلبات الأراخنة، ولما رد أحدهم فى جرأة أعتبر ذلك شيئاً غير مألوف. ليس هذا كل ما فى الأمر بل أن البطريرك نفسه لم يستطع أن يعاقب الذين كانوا يطلقون زوجاتهم فى المحاكم الشرعية «دون سبب شرعى» بل فقط وجه لهم اللوم [٨٩].

بل المثير للدهشة أن البابا لم يملك أيضا سوى توجيه اللوم إلى الذين يزوجون بناتهم إلى أكابر المسلمين، والى المسيحيين من غير أبناء الطائفة، والعجيب أن اللوم لم ينصب على هذا الفعل، بل انصب على إجبارهم الكهنة على إتمام مراسم هذا الزواج[٩٠].

[٨٧] ساويرس بن المقفع:تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية؛ نشرة: يسى عبد المسيح وعزيز سوريال، القاهرة،١٩٥٩م. مج ٢، ص ١٧٣.

[٨٨] اسكاروس: نوابغ، ج١: ص ٢٦٣، ٢٦٤.

[٨٩] أدراج البابا مرقس الثامن (١٧٩٦-١٨٠٩م) مخطوط رقم ٣٤٥/٩٧٢ لاهوت مكتبة الدار البطريركية

[٩٠] نفس المصدر، ورقة ٢٤ وجه.

القبط وخروجهم عن قبول أى قرار يجحف بهم، وقد يكون هذا الأمر حظى بموافقة الأمراء المحليين، حيث أن الجزية تصب فى خزانة السلطنة مباشرة، مهما يكن الأمر فهو دلالة على شعور القبط بمكانتهم.

ويوضح هذه الفكرة أيضاً محاولات تنظيم قوافل للحج إلى القدس؛ وبالرغم من أن الجبرتى يرصد فشل محاولة المعلم نيروز نوار (كبير القبط) فى استكمال المهرجان الكبير المصاحب لقافلة القبط عام ١٧٥٢م، إلا أن إقدام القبط على ذلك يعد امتداداً لقوافل نُظمت قبل ذلك، فيذكر أبو ذقن المنوفى (فى الربع الأول من القرن السابع عشر) أنه كان يتعين على القبط دفع أموال لكى يتمكنوا من زيارة القدس [٨٣] كذلك تحدثنا المصادر عن قافلة كبيرة عام ١٧٠٩م، قام بالتجهيز لها والإنفاق عليها المعلم جرجس أبو منصور الطوخى، دعى إليها الأساقفة وتقاطرت أفواج الحجاج من الوجهين القبلى والبحرى حتى تجمعت فى الصالحية ومنها إلى طريق القدس [٨٤]، أما القصة المشهورة للإعتداء على قافلة الحج القبطية فتتلخص فى حصول المعلم نيروز أبو نوار على فتوى من الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر آنذاك بالسماح للقبط بتنظيم قافلة حج إلى القدس، بعد أن قدم للشيخ الشبراوى هدية ومعها ألف دينار، وبعد أن جهزوا قافلة صاخبة بالطبول والزمور، عاتب الشيخ البكرى الشيخ الشبراوى على هذه المبالغة فى احتفال النصارى واتهمه بالرشوى، فاغتاظ الشيخ الشبراوى وأذن للعامة بنهب القافلة [٨٥] ويناقش محمد عفيفى أمر زيارة القبط إلى القدس ويذكر أن حادثة الإعتداء على قافلة ١٧٥٢ م هى قيود استثنائية [٨٦].

ومهما كان تفسير هذه الأمور إلا أنها تدل على سعى القبط لتأكيد ذاتهم بعد أن بلغوا مبلغاً كبيراً من الوجاهة الإجتماعية.

[٨٣] نقلاً عن صالح نخلة، الحلقة الخامسة، ص ٢٥.
[٨٤] صالح نخلة: الحلقة الرابعة، ص١٥٣ ، ١٥٤.
[٨٥] نقلا عن صالح نخلة، الحلقة الخامسة، ص ٣٠ ،٣١.
[٨٦] محمد عفيفى: الأقباط فى مصر العصر العثمانى، ص ٦٤ –٦٨

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Ğirğis

ولم ينقض هذا القرن حتى تم عمل الميرون مرة ثانية وكان المهتم بتجهيز مستلزماته والإنفاق عليه المعلم ابراهيم جوهرى عام ١٧٨٦م وأرسل إلى الأساقفة يدعوهم إلى الحضور، فحضروا جميعهم سوى أسقف قسقام لمرضه، وأسقف القيامة لتواجده بالقدس ويستطرد كاتب معاصر يصف ما شاهده بنفسه قائلاً: «لم أحد يقدر يصف البهجة والسرور فى كامل الأمور فى هذه المدة الذى فيها كان عمل الميرون الذى حصلت لطايفة القبط، وصاروا محسودين من كامل الطوايف والمسلمين، وعلى ظنى انه لاقبله ولابعده صار مثله» [٧٩].

على أن هذا الأمر يدل على مدى الثراء الذى كان عليه أراخنة هذا العصر، ومدى تنافسهم فى الإنفاق على شؤون الطائفة، وكسب وجاهة إجتماعية.

رابعاً إرتفاع مكانة القبط فى المجتمع المصرى

«أن النصارى ارتفع شأنهم فى أيام على بك بكاتبيه المعلم رزق والمعلم ابراهيم الجوهرى» هكذا يسجل الجبرتى شهادته[٨٠]، وان كنا نعتقد أن شهادة الجبرتى جاءت متأخرة وقد يكون ذلك راجعاً، لأنه لم يكن معاصراً للنصف الأول من القرن الثامن عشر، ولكنه ينقل فى مواضع أخرى شهادات عن مكانة القبط، وأسرف فى الحديث عن كلا من ابراهيم جوهرى وجرجس جوهرى وما بلغاه من مكانة عالية فى المجتمع المصرى[٨١].

ولكننا نرى مظاهر أخرى لإرتفاع هذه المكانة وشعور القبط بذلك فى الأحداث المصاحبة لقرارات زيادة قيمة الجزية علم ١٧٣٢م، إذ تذكر إحدى المخطوطات القبطية رد فعل الأقباط وتنظيمهم مظاهرة اتجهوا بها صوب القلعة، وبرغم هجوم العسكر عليهم، إلا أن هذا الهجوم لم يكن عنيفاً بدليل أن المخطوطة عينها تذكر عدم وقوع إصابات، بل أن القبط صمموا على الوصول إلى الوزير، وفعلاً تمكنوا من ذلك، وتفاوض معه المعلم رزق، ووعده الوزير خيراً[٨٢]، وأهم ما تدل عليه هذه الحادثة، هو جرأة

[٧٩] مخطوط رقم ٤١٤/ ٣٥٠ لاهوت، مكتبة الدار البطريركية، ورقة٢١٢ ظهر.

[٨٠] أوردت معظم المصادر القبطية هذه العبارة، وننقلها هنا عن صالح نخلة، الحلقة الخامسة ص ٦١.

[٨١] تفاصيل هذه الشهادات وترجمة لهذين الرجلين، فى صالح نخلة، الحلقة الخامسة، ص ٦٣ وما بعدها.

[٨٢] مخطوط ٨٨٦/ ٣٩٠ طقس مكتبة الدار البطريركية، ورقة ١٩١ ظهر، ١٩٢ وجه.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

كذلك وجدنا القس منقريوس جرجس، القس كيرلس، بالإضافة إلى بعض الفنانين من أصل غير مصرى، أشهرهم يوحنا الأرمنى، وجرجس الرومى [٧٧]، بالطبع لا امتلك القدرة على نقد وتحليل المستوى الفنى لإنتاج الأيقونات فى هذه الفترة ولكن وجود هذا الفن وبهذه الغزارة يعد مؤشراً لإرتفاع الطلب عليها ويعبر عن وجود الذوق الفنى وارتفاعه ومايحمله من دلالات ثقافية راقية.

ثالثاً عمل الميرون[٧٨]

عمل الميرون من الأعمال الجليلة التى تسجل فى سجل الفخر للبطاركة، واعداد الميرون يتطلب نفقات باهظة فى تحضير مواده، ودعوة الأساقفة للإشتراك فى هذه المناسبة الهامة، وظل عمل الميرون منقطعاً بمصر منذ عام ١٤٦١م وحتى عام ١٧٠٣م ففى هذا العام تقدم أحد الأراخنة وهو المعلم جرجس أبو منصور الطوخى بمبادرة لعمل الميرون، ويحكى المخطوط رقم ١٢٨/٨٣٩ طقس بالمتحف القبطى تفاصيل هذه الحادثة المهمة وحجم الإنفاق الهائل الذى تكفل به هذا الأرخن من شراء مستلزمات الميرون حتى أنه استعان بأحد أصدقائه من كبار المسلمين لإستحضار دهن البلسم من الحجاز أثناء حج هذا الرجل، والطريف أن صديقه المسلم رفض أن يأخذ من المعلم جرجس أبو منصور ثمن هذا الدهن إلا بعد عودته من الحجاز، كذلك استعان بالشيخ عبد الرحيم الشريف شيخ سوق الفحامين لمعرفة أصناف الأفاوى العطرية المناسبة لعمل الميرون، بل أنه بعد انتهاء عمل الميرون، وما صاحبه من استضافة ستة أساقفة على نفقة هذا الأرخن، قدم لكل منهم بدلة كهنوتية كاملة، وعدة مذبح جديدة.

[٧٧] Mat Immerzeel: *Coptic Icons a Reader*, Egyptian – Netherlands Cooperation in Coptic Art Preservation Series 2, 1992, p. 10-14.

[٧٨] الميرون كلمة يونانية معناها الدهن، ومسح المسيحى بزيت الميرون هو أحد أسرار الكنيسة السبعة المقدسة، والتقليد الكنسى يذكر أن أساس الميرون هو الحنوط الذى كان على جسد السيد المسيح والذى أخذه التلاميذ وأضافوا إليه عناصر دهن المسحة الذى كان مدخراً عند اليهود لمسح الأنبياء والملوك بالإضافة إلي الزيت الفلسطينى، وأقتسم التلاميذ هذا الميرون فيما بينهم وحملوه إلي أقاليمهم التى خرجوا يبشرون فيها وبقى هذا الدهن ذخيرة من بعد الرسل لخلفائهم البطاركة، وكلما قارب الدهن على النفاد أخذوا منه خميرة ويضيفون إليها عطوراً وأفاوى محددة ويصنعون ميرون جديد. ساويرس بن المقفع: ترتيب الكهنوت؛ إعداد الأنبا صموئيل، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٤٥ ، ٤٦.

أما عن المنشآت التعليمية، فالمعروف لدينا حتى الآن (الكّتاب)، ولم تفصح الوثائق عن معلومات تتعلق بالمنشآت التعليمية عند القبط لأسباب شرعية، غير أننا نعتقد أن مستوى التعليم لدى القبط فى القرن الثامن عشر تجاوز مرحلة الكتاب، ولقد صادفنا نص هام فى إحدى الوثائق مازلنا نحتار فى تفسيره؛ ففى حجة من محكمة دمياط تاريخها آخر صفر ١١٩٥هـ (١٧٨١م) تسجل وقائع الكشف على ماسمى (كلية النصارى القبط بخط سوق اللبن بالقرب من مقام السادة الأربعين – بثغر دمياط) [٧١]، وقد يتبادر إلى الذهن أنه قراءة خاطئة ولكن المصطلح تكرر فى نفس الوثيقة ست مرات وخط الوثيقة فى غاية الوضوح، بل أن الكشف عليها باعتبارها مؤسسة دينية تتطلب إذنا بترميمها، يؤكد عدم وقوع اللبس فى قراءة الكلمة، ولكننا لانستطيع الجزم بأن هذا المصطلح متعلق بمنشأة تعليمية، كذلك لا يوجد لدينا معلومات – حتى الآن – عن المناهج والمواد والقائمين بالتدريس سوى معلومات ضئيلة، لا تكفى لتكوين رأى سليم نطمأن إليه. والملفت للنظر، أن ترصد دراسة أخرى واقعاً مماثلاً فى الجانب الإسلامى، وتصفه بأنه صحوة ثقافية فى القرن الثامن عشر [٧٢].

يرتبط تعمير الكنائس ونسخ المخطوطات بموضوع آخر مهم ألا وهو الرسم والزخرفة؛ إذ تذخر كثير من مخطوطات القرن الثامن عشر بزخارف بديعة [٧٣] بالإضافة إلى تزيين المخطوطات بصور ملونة تتعلق بموضوعات الكتب [٧٤]، ثم أهم جانب وهو رسم الأيقونات، وأى متابع للفن القبطى سيجد بسهولة شديدة امتلاء الكنائس الأثرية بأيقونات يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر، ولعب الأراخنة نفس الدور، إذ أنفقوا على رسم الأيقونات لإهدائها إلى الكنائس والأديرة، وأهم ما فى الأمر هو وجود فنانين قبط اتخذوا هذه الحرفة مهنة لهم، أشهرهم ابراهيم سمعان الناسخ والذى توفى عام ١٧٨٣م [٧٥]، كذلك وجدنا اسم «سوريال بن القس أبو المنا مصور الأيقونات المصرى»[٧٦]

[٧١] وثائق البطريركية، وثيقة رقم ٢٢U.

[٧٢] بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر ١٧٦٠ – ١٨٤٠م؛ ترجمة: محروس سليمان، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٠٣.

[٧٣] على سبيل المثال مخطوطات أرقام ٦٨/٩٤ مقدسة، ٧٤/ ١٤٧ مقدسة، ٧٦/٧٧ مقدسة، ٨٥/١٤٠ مقدسة، مكتبة الدار البطريركية.

[٧٤] على سبيل المثال مخطوطات أرقام ٧٠/١١٨ مقدسة، ٧٩/ ١٢٤ مقدسة، ٨٢/٧ مقدسة، مكتبة الدار البطريركية

[٧٥] وثائق البطريركية، وثيقة رقم ٢٦١D.

[٧٦] مخطوط ٢٣١/١٣٧ طقس مكتبة المتحف القبطى.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

لترجمة مؤلفاته من الأصل اليونانى [٦٤]، بل أيضاً تمت ترجمة كتب من اللغة الحبشية لإستكمال سير القديسين[٦٥]، كما تُرجمت كتب من اللغة السريانية [٦٦]، ولعل الإهتمام بالترجمة يوضح إدراك المعاصرين ومعرفتهم لقيمة المؤلفات وسعيهم وراء المؤلفات القيمة بلغات أخرى.

من ناحية أخرى تعد الأدراج الصادرة عن البطاركة فى القرن الثامن عشر انتاجاً فكرياً جديداً [٦٧] كذلك تعتبر مؤلفات الأنبا يوساب الأبح أسقف جرجا وأخميم (١٧٣٥ –١٨٢٦م) نموذجاً عالياً للثقافة العميقة والفكر اللاهوتى [٦٨]، أيضاً يدخل فى إطار التأليف فى هذا العصر المدائح الكثيرة التى وضعت للقديسين وانتشرت بشكل كبير فى القرن الثامن عشر، وكثير من هذه المدائح التى مازالت تتلى فى الكنيسة القبطية، دفع الأراخنة ثمن تأليفها، ولم تُدرس هذه المؤلفات حتى الآن بشكل كاف [٦٩].

من ناحية أخرى لابد أن يوضع فى الإعتبار أن الكنائس والأديرة لم تحتفظ إلا بالكتب ذات الصبغة الدينية، وبالتالى علينا أن نعرف ماذا كان يقرأ القبط غير الكتب الدينية، وهذا الأمر لم يكشف عنه حتى الآن [٧٠].

[٦٤] توفيق اسكاروس: نوابغ الأقباط، ج١: ص٢٧٤ ، ٢٧٥، وتوجد نسخة بمكتبة الدار البطريركية تحت رقم ٤٣٦/ ٦١ لاهوت، ونسخة أخرى تحت رقم ٤٣٧م ٧٧ لاهوت، وبآخرها «أخرجه من اليونانية مسعد ايكومونوس الكرسى المرقسى».

[٦٥] ترجم كتاب سنكسار (أى سير القديسين المعترف بهم من الكنيسة) من اللغة الحبشية إلي العربية من ثلاثة أجزاء عام ١٧٣٤م ويحمل أرقام ٢٢٠/١٥٥ أ طقس، ٢٢١/ ١٥٥ب طقس، ٢٢٢/١٥٥ج طقس بمكتبة المتحف القبطى.

[٦٦] تمت ترجمة كتاب منارة الأقداس من السريانية، وقام بالترجمة قس يدعى هندى بناء على طلب البابا مرقس الثامن (١٧٩٦–١٨٠٩م) مخطوط رقم ٤٣٤/٣٣٧ لاهوت مكتبة الدار البطريركية، كذلك كتاب مرشد الكاهن مخطوط رقم ٤٩٣/١٦١لاهوت الدار البطريركية.

[٦٧] تحتفظ مكتبة الدار البطريركية بأدراج كلا من البابا يوأنس المائة والسابع (١٧٦٩–١٧٩٦م) مخطوط ٤٩٤/١٢٣ لاهوت، وأدراج البابا مرقس المائة والثامن (١٧٩٦–١٨٠٩م) مخطوط ٤٧٠/٣٤٥ لاهوت.

[٦٨] من أشهر مؤلفاته كتاب: سلاح المؤمنين، وهو يحتوى على إحدى وثلاثين مقالة تغطى موضوعات لاهوتية وفكرية وعقائدية مختلفة، بالإضافة إلي كتاب آخر يشتمل على ٤٧ مقالة متنوعة، ونسبها هذا القديس إلي البابايوأنس المائة والسابع (١٧٦٩–١٧٩٦م).

[٦٩] قام الدكتور يوحنا نسيم يوسف بدراسة أحد مؤلفى هذا النوع من الأدب القبطى، وهو نيقوديموس والذى ألف كم كبير من الإبصاليات فقال عنه: «من حوالى القرن الثامن عشر من اصل صعيدى رحل إلي القاهرة، تعلم الكتب الطقسية والمقدمات والسلالم، وأجاد اللغة القبطية، ويبدو أنه كان علمانى». أسبوع القبطيات الثامن؛ كنيسة العذراء بروض الفرج بالقاهرة، ١٩٩٨م، ص ٥٢

[٧٠] تتبعنا تركات القبط فى سجلات محكمة القسمة العربية بدار الوثائق القومية بالقاهرة لمتابعة تركات كبار الأراخنة فى القرن الثامن عشر، ولم نصل إلي شئ، وهذا الأمر متعلق بطبيعة العمل فى المحاكم العثمانية وكيفية إنشاء الوثائق وتسجيلها، والتى لاتعبر عن الواقع – فى مثل هذه الأمور – كثيراً ويجب أن تؤخذ المعلومات الواردة فى وثائق المحاكم بحذر. ولكن تنقل المصادر القبطية عن المعلم رزق أنه كان عارفاً بعلم الفلك.

٥٠٪ من هذه المخطوطات يعود تاريخ نسخه إلى القرن الثامن عشر [٦٣]، وترتب على الطلب على نسخ المخطوطات رواجاً للنساخ حتى أننا قابلنا نساخ كانوا يتكسبون من هذه المهنة فى معظم محافظات مصر فى هذا القرن، إذ لم تقف هذه الظاهرة عند العاصمة فقط بل شملت كافة نواح القطر المصرى، وتوالت الكتب المنتسخة فى المحافظات المختلفة، أو لحساب أشخاص فى هذه المحافظات.

واخترنا نماذج للنساخ فى الوجه القبلى كتعبير عن هذه الظاهرة، ووقع إختيارنا على الوجه القبلى بالتحديد، للتأكيد على مدى رواج الكتب، والقراءة فى المناطق البعيدة عن نفوذ العاصمة:

مرقوريوس من منية أبوفيس (١٧٠٣م) مخطوط ١١/٣٢٢ مقدسة، المتحف القبطى،
القس مرقوريوس ميخائيل مؤدب الأطفال بأسيوط (١٧١٥م) مخطوط ٣٤٤/٨١٦ طقس، الدار البطريركية، (١٧٢٢م) مخطوط ٣٢٥/٤٨٢ لاهوت، مكتبة الدار البطريركية،
يوسف يعقوب الملاوانى (١٧٤٠م) مخطوط ٣/٣٤ مقدسة، المتحف القبطى،
جرجس الجيزاوى بن سعد الله النحال (١٧٤٩م) مخطوط ١٥٥/٢٢٥ طقس، المتحف القبطى،
جرجس بن بولس – ببا الكبرى (١٧٨٥م) مخطوط ٢٢/٢٥١ طقس، المتحف القبطى،
نسيم أبادير الأبوتيجى (١٧٧٩م) ١١٠٥ /متنوعة، الدار البطريركية،
عبد المسيح يوسف البوقى (ق ١٨) مخطوط ١/١٠٧٢ متنوعة، الدار البطريركية،
ولدينا نساخ كثيرين غيرهم، منتشرين فى كافة أنحاء القطر المصرى.

وبالطبع لتقييم المستوى الثقافى يجب أن تُدرس بعناية الموضوعات التى أُنتسخت، وكذلك أيضاً البحث عن مؤلفات جديدة أُنتجت فى هذا العصر، على أن الولع بترجمة بعض المؤلفات الهامة التى لها وزنها على مستوى الفكر المسيحى عامة ينبئ بإرتفاع الوعى الثقافى لقيمة هذه المؤلفات، نذكر على سبيل المثال البحث الدؤوب عن مؤلفات القديس يوحنا ذهبى الفم، وهو المفكر واللاهوتى ذائع الصيت منذ القرن الخامس الميلادى (٣٤٧ –٤٠٧م)، حتى أن المعلم ابراهيم جوهرى انتدب أحد العارفين باليونانية

[٦٣] طبقت هذه النسبة على كتالوجات مخطوطات مكتبة الدار البطريركية بالقاهرة، ومكتبة المتحف القبطى بالقاهرة، ومكتبة دير الأنبا بولا بالبحر الأحمر.

المصادر يتعلق بأمور فقهية تتحكم فى صياغة الوثائق الشرعية [٦٢]، ولكن الواضح فى القرن الثامن عشر هو كثرة الكتب التى أنتسخت فى هذا القرن، ومعظمها أنتسخ لحساب الأراخنة، لكى يوقفوها على الكنائس والأديرة، أو للاحتفاظ بها لأنفسهم، ويكفى للدلالة على حجم عملية النسخ – وبالضرورة فهى تعبر عن رواج القراءة بل والثقافة – أن نطالع أى كتالوج للمخطوطات القبطية العربية، سنجد دون عناء أن

[٦٢] كافة المذاهب قيدت الوقف على الكنيسة مباشرة، كما قيدت إظهار قصد للواقف يتعارض مع الشرع الإسلامى، ولا جدال فى أن تعليم الدين المسيحى يدخل ضمن هذا الإطار، بينما أجاز الفقهاء بلا استثناء وقف القبطى على الفقراء والمساكين من أهل ملته، وبالرغم من أن الرهبان معروف عنهم أنهم نصارى، متفرغين لممارسة عباداتهم وفق شعائر دين غير الدين الإسلامى، إلا أن الرهبان حظيوا بتقدير خاص فى التراث الإسلامى، وقد يكون ذلك امتداداً للعطف الذى لاقوه من النبى محمد، إذ آثر عنه أنه كان يعطى الرهبان من صدقة الفطر وهى مال إسلامي خالص ويتناقل المفسرون أيضا قصة نشأة الرهبانية بطريقة لا تخلو من الإحترام والتقدير، بل أن المفسرين الأوائل ذهبوا فى تفسيرهم للآية رقم (٢٧) من سورة الحديد والتى نصها: «ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون» إلى أن الفرقة التى لم ترع حق الرهبانية هى فرقة تالية للذين ابتدعوها، وكون الله ذكر أن «الذين آمنوا منهم لهم أجرهم» دليل على أن منهم من رعى حق الرهبانية. ولما كان الرهبان يقيمون بالأديرة لذا لم يرى الفقهاء أى غضاضة فى إجازة الوقف على المنقطعين والمقيمين بالأديرة، بل أن هذا التقليد الذى أرساه النبى وجد صداه لدى الخلفاء والحكام، فوجدنا كثير من الحكام يوقفون (بالأكثر دقة: يحبسون) بأنفسهم على الأديرة، وإزاء هذا التسهيل بل والتمييز الممنوح للأديرة والساكنين فيها، أطلق القبط على مؤسساتهم الدينية الأخرى لقب (دير)، فأصبحت كل الكنائس يطلق عليها (دير) فى حين لم يكن لها أدنى علاقة بالمؤسسة الرهبانية التى هى أساس إطلاق كلمة دير على المكان الذى يقيم فيه الرهبان، وأصبحت العبارة التقليدية الواردة فى وثائق الوقف القبطية لذكر الموقوف عليهم: «على الفقراء الواردين والمترددين والمقيمين بدير...»

الواقع أن هذا التداخل المقصود بين لفظى دير و كنيسة، كان واضحاً لدى القضاة والفقهاء، بل أكثر من ذلك كان معروفاً أن العبارات المنصوص عليها فى وثائق الوقف، من حيث أن الموقوف عليهم هم الفقراء المنقطعين والمترددين على هذه الأماكن، هى فى الأصل عبارات ظاهرية لا تتعلق بالواقع، فإذا كان الأمر كذلك فى الإلتفاف على النصوص وإيجاد مخرج لإجازة الوقف على الكنائس، فلا يتصور بحال من الأحوال أن يسمح للواقفون بذكر أوجه الإنفاق بشئ من التفصيل، ولابد أن يكون قصد الواقف المنصوص عليه فى الوثائق لا يتعارض مع التشريع الإسلامى، وهذه الخاصية جعلت من الوثائق الشرعية الخاصة بأوقاف القبط لا تعطينا أى معلومات ذات قيمة كبيرة عن المؤسسات الدينية والتعليمية للقبط، وأسلوب إدارتها، كما عرفنا ذلك عن المؤسسات الإسلامية من خلال نفس النوعية من الوثائق، ولكن ذلك لايعنى عدم وجودها أو عدم الإنفاق عليها من قبل الواقفين.
محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر، ط١، القاهرة: دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٠م صـ ٣٠، ٣١. – الشافعى، محمد بن إدريس: الأم؛ تصحيح: محمد زهرى النجار، ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٣م، جـ٤ صـ٢١٣.– آبو عبيد: كتاب الأموال؛ تحقيق: محمد حامد الفقى القاهرة،١٣٥٣هـ، ص٦١٣.–ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة؛ تحقيق: صبحى الصالح، ط١، دمشق، ١٩٦١م ص ٣٠٢. – الطبرى، آبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان فى تفسير القرآن، مصر: المطبعة الميمنية، د.ت، ج٢٦، ص١٢٣–١٢٥.– ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، لبنان:دار الجيل،١٩٩٠م ج٤، ص ٣١٦، ٣١٧ .– سلام شافعى:أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ص ٩٨، ٩٩.
حسن الوفائى الحنفى الشرنبلالى: التحقيقات القدسية والنفحات الرحمانية فى الرسائل الحسنية،مخطوط بدار الكتب المصرية، فقه حنفى – طلعت رقم ٦٢٢ – ميكرو فيلم ٩٢٢٢ ورقة ٤٥٠ ظهر، ٤٥١ وجه.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

والغريب أن المصادر القبطية تعزو النهضة العمرانية للكنائس إلى ما اتخذه البابا يوأنس السادس عشر (رقم ١٠٣ من البطاركة) (١٦٧٦ –١٧١٨م) بشأن نظار الكنائس؛ فتذكر أن هذا البطريرك أوكل نظارة الكنائس إلى الأراخنة المباشرين بعد أن كانت تحت نظر أرباب الصنائع والحرف! [٥٨]، وهذه المقولة تبين عجز المصادر القبطية عن استيعاب الأحداث وفهم مدلولاتها ونحن من جانبنا قمنا بحصر دقيق لنظار الكنائس قبل تولى هذا البطريرك لإختبار مدى صحة هذه المقولة، وفوجئنا بأن نظار الكنائس هم من كبار الأراخنة المباشرين باستثناء أديرة البنات الثلاث بالقاهرة فى حارة الروم وحارة زويلة ومصر القديمة، كان نظارها على الترتيب: يوسف شنودة الخياط، عطا الله سعد (دون ذكر مهنته)، يوحنا يوسف الخشاب [٥٩] وفى القرن الثامن عشر وجدنا نظاراً للكنائس من غير المباشرين، مثل غبريال الخياط ولد قزمان ناظر كنيسة كوم أشفين[٦٠]، كذلك وجدنا كهنة نظاراً للكنائس فى القرن الثامن عشر أيضاً، منهم: القسيس حنا ناظر كنيسة أبو سرجة بمصر القديمة[٦١].

فالأمر متعلق حينئذ بظروف العصر وليس بالأشخاص.

ثانياً الاهتمام بالتعليم والثقافة

واكب نهضة تعمير الكنائس والأديرة حركة أخرى على جانب كبير من الأهمية، وهى حركة تعليمية ثقافية، أنفق عليها الأراخنة أموالاً طائلة، وامتد أثرها ليشمل كافة أنحاء مصر، ولم تقتصر على القاهرة فقط، وهذه النقطة بالذات تتطلب حذراً شديداً فى تناولها، خاصة وأن المصادر تضن علينا بالمعلومات عن المؤسسات التعليمية عند القبط، وأحوالهم الثقافية فى العصر العثمانى بأكمله، وهذا التعتيم من جانب

[٥٨] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الرابعة، ص١٣٦ وترددت هذه العبارة فى الدراسات الصادرة بعد ذلك.

[٥٩] وثائق البطريركية، 278G، تاريخها ١٠٧٧هـ، 340D، تاريخها ١٠٨٦هـ.

[٦٠] وثائق البطريركية، 384D، تاريخها ١١٤٦هـ.

[٦١] وثائق البطريركية، 331D، تاريخها ١٢٠٦هـ.

ويحصل الأرخن على الأذن بالتعمير [٥٢]، وأتبع نفس هذا الأسلوب فى كنائس أخرى، وذكر فى الوثيقة أنها دير نذكر منها:

كنيسة العذراء الدمشيرية بمصر القديمة [٥٣]،

كنيسة العذراء قصرية الريحان بمصر القديمة[٥٤].

والطريقة الثانية:

أن يتقدم الأرخن أو ناظر الكنيسة بسؤال إلى السادة العلماء ليحصل بمقتضاه على فتوى تؤذن له بالتعمير فيقدمها إلى القاضى ليصدر له حجة شرعية تعطيه هذا الحق، وهذا الأسلوب أتبعه بكثرة المعلم ابراهيم جوهرى[٥٥].

ونورد نصاً لصورة السؤال والجواب عليه لترميم وتعمير كنيسة بالإسكندرية: «ما قولكم دام فضلكم فى دير معد لاجتماع الرهبان من النصارى القبطة تخلخلت جدرانه ووهنت حيطانه واستولى عليه الخراب وآل إلى السقوط بإخبار أهل المعرفة وصار كل من فيه يخشى على نفسه من اللصوص ولا مأوى لهم غيره فهل والحالة هذه يجوز لولاة الأمور أن يأذنوهم بتعمير وترميم ما انهدم منها أم لا أم كيف الحال افيدوا الجواب ولكم الثواب» فيجيب المفتى الحنفى بقوله: «الحمد لله مستحق الحمد نعم حيث تخلخلت جدران الدير وآل إلى السقوط فيجوز لولاة الأمور ضاعف الله لنا ولهم الأجور أن يأذنوا الرهبان فى تعمير ما خرب من ديرهم القديم واعادة ما انهدم منه» ثم يسترسل فى ذكر أقوال ائمة مذهبه الحنفى، وعلى ذلك يحصل الناظر بأذن التعمير فى صورة حجة شرعية [٥٦].

والشيء المؤكد أن كلا من المفتى والقاضى يعلمون تمام العلم بأن المكان ليس ديراً على الإطلاق وانما هو كنيسة، ولا يوجد رهبان بهذا المكان، ولكنه أمر شكلى لابد أن يتم[٥٧].

[٥٢] وثائق بطريركية القبط الأرثوذكس بالقاهرة، وثيقة رقم ٢١S، تاريخها ٢٥ رجب ١١٣٣هـ.

[٥٣] وثائق البطريركية، وثيقة رقم ١٦S، تاريخها ١٥ شعبان ١١٦٥هـ.

[٥٤] وثائق البطريركية، وثيقة رقم ٤M، تاريخها ٣ رمضان ١١٩١هـ.

[٥٥] توفيق اسكاروس: نوابغ الأقباط، ج١: ص٣٣٢ وما بعدها حيث يورد نماذج لصور الفتاوى.

[٥٦] وثائق البطريركية، وثيقة رقم ٧U، تاريخها ١٥ شوال ١١٩٣ هـ.

[٥٧] حول سبب إطلاق مصطلح دير على الكنائس، أنظر هامش ٦٢.

وهذه النقطة بالذات تفسر لنا كيف أصبح القرار فى مصر أكثر محلية، وأصبح الأمراء المحليون لايعبأون كثيراً برد فعل السلطنة، أو حتى برضاها عن أعمالهم، وأعتمد الأراخنة اعتماداً كبيراً على سلطة الأمراء، وفى نفس الوقت اعتمدوا على العلاقات الحسنة مع كبار العلماء والفقهاء فى تيسير الأمور.

ويبدو أن بعض الأراخنة شعروا بأن الأمور أصبحت فى صالحهم، لذا لم يجدوا ضرورة فى الحصول على إذن مسبق، فنجد المعلم لطف الله أبو يوسف فى مطلع القرن الثامن عشر يعمر كنيستين دفعة واحدة وينشئ بهما منشآت جديدة، ولكن فُتن عليه وبلغ الأمر للباشا العثمانى فتدخل جماعة من أكابر الدولة (هكذا يحددهم المصدر القبطى) الذين يحبون هذا المعلم وصالحوا الباشا بأربعين كيساً، دفعها المعلم لطف الله بالكامل من ماله الخاص[٥٠]، ومر الأمر دون ضوضاء كما كان يحدث من قبل، أما الترميمات والإنشاءات التى قام بها كلا من المعلم يوحنا أبو مصرى و المعلم جرجس أبو منصور الطوخى والسابقة على المعلم يوسف أبو لطف الله فتمت فى هدوء ودون فتن ودون إذن شرعى[٥١] ولكن حادثة المعلم لطف الله أبو يوسف نبهت الأراخنة لضرورة توخى الحذر وعلى ذلك لجأ الأراخنة إلى الأسلوب الشرعى، والذى تمثل فى طريقتين:

الطريقة الأولى، ونذكر لها مثلاً ماتم فى كنيسة بابلون الدرج بمصر القديمة:

– يتقدم الذمى جرجس سيدروس المباشر بخدمة الأمير يوسف بيك أمير اللوا وقائم مقام حالاً، بطلب إلى مخدومه الأمير يوسف يطلب فيه الأذن بتعمير الكنيسة (تُذكر فى الوثيقة باسم دير) بعد أن «تشققت حيطانه وآلت إلى السقوط ويخشى من سقوطها على حين غفلة فيضر بالمارين» فيوجه الأمير هذا الطلب إلى قاضى القضاة، والذى يهتم بالأمر ويكلف (كشاف الأوقاف) بمعاينة الدير للبت فى هذا الطلب، وبالطبع تكون النتيجة حسب رغبة الطالب الموافقة لرغبة مخدومه وبرضا القاضى والكشاف،

[٥٠] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الخامسة ص ١٠، والمصالحة على مال هى أسلوب رائج فى ذلك العصر، ليس مع الحكام فقط بل مع الفقهاء أيضاً، فالحصول على فتوى بحق من الحقوق، أو حتى تغيير مضمون فتوى ضارة هو أمر ميسور لمن يدفع، ويذكر الجبرتى نماذج كثيرة لهذا الأمر؛ الجبرتى: تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، بيروت: دار الجيل، د.ت ج١: ص ٥٨٩ ،٥٩٠، ج٢: ص٤٦.

[٥١] عمر المعلم يوحنا أبو مصرى كنيسة العذراء بحارة زويلة، والمعلم جرجس الطوخى كنيستى المعلقة والعذراء بحارة الروم، صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الرابعة، ص ١٣٦، ١٣٧.

وعلى ذلك كان ترميم الكنائس يتم بحذر شديد وبصعوبات كثيرة؛ لذلك لم تصادفنا أخبار كثيرة عن تعمير أو ترميم كنائس قبل منتصف القرن السابع عشر، أما بدءاً من القرن الثامن عشر فتغيرت الأوضاع وشهدت معظم الكنائس والأديرة حركة تعميرية واسعة النطاق، حتى انه لا تخلو أى كنيسة أثرية أو دير من شاهد على امتداد يد التعمير إليه فى القرن الثامن عشر، ولا يمكننا أن نفسر ذلك فقط بتدفق الثروات إلى أيدى القبط، فطالما كان هناك أقباط على جانب كبير من الثراء، ولكن ظروف العصر هيأت للأراخنة هذه الفرصة، فاندفعوا لاستغلالها إلى أقصى حد، ولا يمكننا أن نرصد كل الكنائس والأديرة التى شملها التعمير، ولكن نقول، بكل ثقة، أن جميع كنائس القاهرة بلا استثناء شملها التجديد والتعمير وإضافة منشآت جديدة إليها، وبنفس الثقة نقول أن جميع الأديرة العامرة آنذاك جُددت وعُمرت وأُضيف إليها منشآت جديدة؛ نذكر على سبيل المثال دير الأنبا بولا بجبال البحر الأحمر؛ هذا الدير أعيدت إليه الحياة بعد أن هُجر لمدة ١١٩ سنة، ففى عام ١٧٠١م عُمر الدير مرة أخرى وبُنيت أسواره المتهدمة ورُممت كنيسته [٤٦]، وفى عام ١٧٣٢م أنشئت به كنيسة جديدة على نفقة المعلم جرجس يوسف السروجى والذى تكفل أيضا بدعوة البطريرك وكبار الأراخنة وتجهيز قافلة إلى الدير أنفق عليها نفقات باهظة [٤٧].

وفى عام ١٧٧٨م أنشأ المعلم ابراهيم جوهرى كنيسة أخرى بنفس الدير على اسم القديس أبو سيفين [٤٨].

وتبارى الأراخنة فى تعمير الكنائس والأديرة فى سائر أنحاء القطر المصرى، وأوقفوا عليها أوقافاً كثيرة وكبيرة [٤٩]، على أن أكثر مايشغلنا هو معرفة الأجواء التى سمحت بهذه النهضة العمرانية الكبيرة، والأساليب المتبعة – من الناحية الشرعية – لإنجاز هذه العمائر.

[٤٦] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الرابعة، ص ١٤٦، ١٤٧.

[٤٧] التفاصيل الكاملة لإنشاء الكنيسة وحفلة تكريزها مسجلة فى المخطوط رقم ١١٧ تاريخ بمكتبة الدير، كذلك اسم المعلم جرجس يوسف السروجى وتاريخ بناء الكنيسة مسجل على عقد باب الهيكل بالكنيسة، وسميت الكنيسة باسم الملاك ميخائيل ويوحنا المعمدان.

[٤٨] اسم المعلم ابراهيم جوهرى وتاريخ إنشاء الكنيسة مسجل على عقد بابها الخارجى.

[٤٩] حتى الآن رصدنا عدد ٨٤٢ وثيقة وقف فى القرن الثامن عشر بأرشيف بطريركية القبط الأرثوذكس بالقاهرة وهذه الوقفيات تغطى كنائس وأديرة القطر المصرى جميعه.

كذلك تصدى الأراخنة لمحاولة استقطاب بعض القبط من جانب الإرساليات الكاثوليكية، واستصدروا حجة شرعية تقطع الطريق على من يقع تحت تأثير هذه الإرساليات[٤١].

وأثناء أحداث قرارات زيادة قيمة الجزية فى عام ١٧٣٢م برز دور الأراخنة، بوصفهم ممثلو الطائفة، وتوجهوا إلى القلعة لمقابلة الباشا لمناقشته فى هذا الأمر [٤٢].

أما أهم مظاهر أعمال الأراخنة فى هذا القرن فتمثلت فى الآتى:

أولاً تعمير وترميم معظم الكنائس والأديرة

تعمير وترميم الكنائس من الأمور ذات الحساسية الشديدة فى التراث المصرى، وطالما كانت هذه النقطة مدخلاً لإثارة القلاقل والفتن، خاصة وأن موضوع الكنائس متعلق بتقنينات شرعية كثيرة لم يبت فيها – من الوجهة الجدلية – حتى الآن؛ وينظم هذا الموضوع نصوص فقهية تضع قيود على الترميم والتعمير، ولا تجيز بأى حال من الأحوال استحداث كنائس[٤٣] ويرتبط أيضاً بهذا الأمر الأحوال السياسية والإجتماعية والثقافية السائدة؛ فعلى سبيل المثال أذن موسى بن عيسى والى مصر فى عام ١٧١هـ للنصارى ببناء كنائسهم التى كان قد هدمها سلفه، وهذا الاذن تم بمشورة كلا من الفقيهين المصريين ذائعى الصيت: الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة الا أن هذا الموقف لم يجد قبولاً فى القرن التاسع الهجرى؛ إذ يعلق ابن تغرى بردى على هذا الحدث قائلاً: «وهو من الأعمال غير المقبولة من موسى بن عيسى»[٤٤]، بينما توالت الفتاوى الفقهية بإجازة الترميم والتعمير للكنائس فى القرن الثامن عشر وبموافقة الحكام كما سنرى[٤٥].

[٤١] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الخامسة، ص ٢٣، ٢٤.

[٤٢] مخطوط رقم ٣٩٠ طقس / ٨٨٦ مكتبة الدار البطريركية بالقاهرة، ورقة ١٩١ ظهر، ١٩٢ وجه.

[٤٣] تناولت دراسات عديدة هذه الناحية، نذكر منها على سبيل المثال تريتون: أهل الذمة فى الإسلام؛ ترجمة وتعليق حسن حبشى، ط٣، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ (تاريخ المصريين، ٧٠). وقاسم عبده قاسم: أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، ط٢، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م. ومحمد عفيفى: الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م (تاريخ المصريين، ٥٤).

[٤٤] ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، د.ت (طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب) ج٢: ص ٦٦.

[٤٥] لاينكر وقوف البعض ضد تعمير الكنائس وترميمها ولكن لم يكن التيار فى صالحهم لذلك لم يتمكنوا من وقف سيل الترميم والتعمير فى هذا العصر.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

أما عند اختيار البابا مرقس السادس (رقم ١٠١من البطاركة) (١٦٤٦-١٦٥٦م) فكان الأمر برمته فى أيدى الأراخنة بمفردهم، حتى أن الذى رشح البطريرك واختاره، دون اشتراك الأساقفة، هو المعلم بشارة – رأس الأراخنة آنذاك [٣٦]، والأراخنة بمفردهم هم الذين اختاروا البطريرك التالى متاؤس الرابع (١٦٦٠-١٦٧٥م)، واثناء اختيار البابا التالى البابا يوأنس السادس عشر (١٦٧٦- ١٧١٨م) ذهب كبار الأراخنة إلى دير أنبا أنطونيوس بالصحراء الشرقية لاختيار البطريرك من بين رهبانه، دون مشاركة أحد خلافهم[٣٧].

أما البابا التالى البابا بطرس السادس (١٧١٨-١٧٢٦م) فتكفل بترشيحه واختياره وتعيينه أحد أشهر الأراخنة آنذاك وهو المعلم لطف الله أبو يوسف[٣٨].

وبالرغم من تعتيم المصادر القبطية حول أسلوب اختيار البطاركة بعد هذا البطريرك وحتى نهاية القرن الثامن عشر، إلا أننا نرجح أن دور الأراخنة استمر بل وازداد انفرادهم بهذا الأمر تبعاً لازدياد وترسخ نفوذهم.

صناعة القرار على مستوى الطائفة

قبل منتصف القرن السابع عشر، كان البطريرك هو الممثل الشرعى للطائفة، وكان يشرك معه الأساقفة فى الأمور الهامة الخاصة بالطائفة ككل؛ نذكر على سبيل المثال، المناقشات التى دارت، حول أمر مصيرى وهام، وهو وحدة الكنيسة القبطية مع كنيسة روما، وكيف أن البابا يوأنس الرابع عشر (رقم ٩٦ من البطاركة) (١٥٧١-١٥٨٦م) أغلق مناقشة هذا الأمر على الأساقفة فقط، بالرغم من انه يمثل أهمية وخطورة كبيرة تخرج عن الإطار الدينى[٣٩].

أما فى القرن الثامن عشر فأصبحت كل الأمور تُقرر بواسطة الأراخنة، حتى الأمور ذات الصبغة الكنسية تدخل فيها الأراخنة أحيانا؛ على سبيل المثال، عندما طلب ملك الحبشة تعيين مطران للحبشة، أبلغ البطريرك بطرس السادس المعلم لطف الله أبو يوسف بهذا الأمر والذى بدوره رشح المطران واختاره[٤٠].

[٣٦] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الرابعة، ص ١٠٦.
[٣٧] نفس المصدر ص ١٣٤.
[٣٨] نفس المصدر، الحلقة الخامسة، ص ٦.
[٣٩] نفس المصدر، الحلقة الرابعة، ص ٧٧-٧٩.
[٤٠] مخطوط رقم ١١٧ تاريخ، دير الأنبا بولا بالبحر الأحمر، ورقة ٢٧ وجه.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

وتبعه أخوه المعلم جرجس جوهرى حتى نهاية القرن، ودائماً تقترن سيرة المعلم جرجس جوهرى بسيرة أخيه المعلم ابراهيم جوهرى؛ حيث اشتركا معاً فى معظم أعمالهما التى قدموها للطائفة، وقال عنه الجبرتى فى وفيات عام ١٢٢٥ هـ «لما مات أخوه تعين مكانه فى الرئاسة على المباشرين والكتبة وبيده الأمور وربطها فى جميع الأقاليم المصرية، نافذ الكلمة وافر الحرمة» [٣٣].

ولعل الدليل على أن الدور القيادى للأراخنة كان يحظى بشعبية بين عامة القبط، ويحظى أيضاً بترحيب الكنيسة وتبريكها له، أنه فى بداية القرن التاسع عشر والذى شهد بروز نجم المباشرين غير الأرثوذكس ومعهم الشوام، على حساب مكانة الأراخنة القبط الأرثوذكس؛ أعتبر القبط أن هذا الأمر يمثل غضباً عليهم من قبل الله، حتى قيل أن «الله أعدم من طائفة القبط، المقدم أمام متولى الوقت غضبا عليهم»[٣٤].

ولكن هذه الأوضاع الجديدة أحدثت تغييرات هامة داخل الطائفة؛ حيث أن توطد نفوذ الأراخنة، وتوجيه هذا النفوذ لصالح شؤون الطائفة، جاء على حساب نفوذ رجال الكنيسة القبطية، حتى أن دور البطريرك تقلص إلى حد كبير، بصفته الممثل الشرعى للطائفة، وارتفعت مكانة الأراخنة، ومارسوا الدور الأكبر فى شؤون الطائفة؛ وظهر هذا الأمر جلياً فى الأمور التالية:

اختيار البطريرك

كان اختيار البطريرك يتم بالتنسيق بين الأساقفة وكبار رجال الطائفة (الأراخنة) رأينا ذلك فى عمليات اختيار البطاركة فى العصر العثمانى بدءاً من البابا غبريال السابع (رقم ٩٥ من البطاركة) (١٥٢٥–١٥٦٨م) وانتهاءاً بالبابا متاؤس الثالث (رقم ١٠٠ من البطاركة) (١٦٣١–١٦٤٦م) [٣٥].

وأخميم، توفى ١٨٢٦م) قائلاً «أرخن عظيم بار قديس» وأدرجت سيرته ضمن السنكسار القبطى كشأن كبار القديسين والشهداء وتحكى قصته للأطفال الصغار كنموذج للحياة المسيحية الفاضلة.

[٣٣] نقلاً عن اسكاروس: نوابغ الأقباط، ج٢: ص ٣٠٣.

[٣٤] مخطوط ٢٥٩ لاهوت/٤٤٧ مكتبة الدار البطريركية بالقاهرة، مواعظ ورسايل البابا بطرس الجاولى (١٨٠٩–١٨٥٣م) ورقة ١٠ وجه.

[٣٥] تابعنا عمليات اختيار البطاركة فى السير التى جمعها كامل صالح نخلة: سلسلة تاريخ البابا‌وات بطاركة الكرسى الإسكندري الحلقتين الرابعة والخامسة، مطبوعات دير السريان، ١٩٥٤م ونعتقد أنها أدق مصدر قبطى متاح يمكن الاعتماد عليه لسعة ثقافة المؤلف ومكانته ودقته من حيث التواريخ واعتماده على مخطوطات مختلف الأديرة، وان كان لنا ملاحظات على تفسيره للأحداث.

واستكمل مسيرته المعلم جرجس يوسف السروجى مباشر الأمير عثمان كتخدا مستحفظان [٢٢]، والذى أنفق أموالاً طائلة على ترميم وتعمير الكنائس والأديرة، ورعاية أمور الطائفة بنفس نهج المعلم لطف الله أبو يوسف، حتى انه لُقّب فى المصادر القبطية «المعلم جرجس أبو يوسف الشهير بالمرحوم المعلم لطف الله»[٢٣] و«أمير قومه» [٢٤] وتوفى عام ١٧٣٧م [٢٥].

وجاء بعده المعلم نيروز أبو نوار، والذى لقبه الجبرتى بلقب «كبير القبط» وأهم وظائفه التى وسعت نفوذه هى التحاقه بخدمة الأمير رضوان كتخدا عزبان [٢٦]، بل أن هذا الرجل حمل لقباً خاصاً بالبطريرك وهو «المعلم نيروز أبو نوار الناظر الشرعى يوميذ على أوقاف النصارى اليعاقبة بمصر وغيرها»[٢٧] وتوفى فى ربيع الأول عام ١١٧٣هـ (١٧٥٩م)[٢٨].

جاء بعد المعلم نيروز، المعلم رزق مباشر الروزنامة، وصاحب أهم الأدوار فى هذه الفترة، كان مصاحباً للمعلم نيروز، ثم استأثر بنفوذ واسع بعد وفاته، وتوفى فى ذى الحجة عام ١١٨٣هـ (١٧٧٠م)[٢٩].

وسلم الراية للمعلم ابراهيم جوهرى، والذى بلغ الذروة فى تاريخ القبط والذى قال عنه الجبرتى فى وفياته لعام ١٢٠٩هـ «مات الذمى المعلم ابراهيم الجوهرى رئيس الكتبة الأقباط بمصر، وأدرك فى هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم، كان هو المشار إليه فى الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة والميرى وجميع الإيراد والمنصرف وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده واشارته»[٣٠]، حتى عد أعظم أراخنة القبط طوال تاريخهم، ولقبته المصادر القبطية بلقب «سلطان القبط»[٣١] وتوفى فى ٣١ مايو عام ١٧٩٥م[٣٢].

[٢٢] وثائق البطريركية: ١٠٣D، ١٣٣D، ٣٣٧D.

[٢٣] مخطوط ١١٧ تاريخ، بدير الأنبا بولا، ورقة١٤٣ ظهر.

[٢٤] منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة: مكتبة المحبة، د.ت، ص ٤٧٥.

[٢٥] سجل رقم ١٤٧، م ١٦٣، ص ١٤٢ محكمة القسمة العسكرية، دار الوثائق القومية بالقاهرة.

[٢٦] حول مكانة هذا الرجل ونفوذه أنظر: مجدى جرجس: إدارة الأزمات فى تاريخ القبط، ص ٥٤.

[٢٧] وثائق البطريركية، ٤١٦G تاريخها ١٦ الحجة ١١٦٨هـ.

[٢٨] وثائق البطريركية، ١٨١٠A.

[٢٩] بالرغم من إشارة الجبرتى إلي تولى المعلم رزق الخدمة ككاتب لدى على بك الكبير، إلا أننا لم نقابل هذه الوظيفة فى سجل حياة المعلم رزق من خلال عشرات الوثائق المتعلقة به، ولمزيد من التفاصيل عن حياته ودوره والوظائف التى تقلدها، انظر: مجدى جرجس: إدارة الأزمات فى تاريخ القبط، ص ٥٣.

[٣٠] نقلاً عن اسكاروس: نوابغ الأقباط، ج١: ص ٢٣٢.

[٣١] ورد هذا اللقب فى معظم المصادر القبطية ولكننا تعمدنا نقلها عن السنكسار القبطى وهو نص رسمى يتلى فى الكنيسة، كتاب السنكسار ج٢: ص ٢٠١.

[٣٢] خصص توفيق اسكاروس لترجمة حياة المعلم ابراهيم جوهرى ١٦٢ صفحة فى كتابه: نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر، القاهرة،١٩١٠م، ج١، ص ٢٠٦-٣٦٧، وكذلك توقفت جميع المصادر القبطية أمام سيرة هذا الرجل حتى وصلت مكانته فى الكنيسة إلي حد القداسة، ورثاه أحد أشهر أساقفة هذا العصر (الأنبا يوساب أسقف جرجا

٣. المكانة الرفيعة المترسخة فى نفوس عامة القبط

نظراً لارتفاع مكانة كبار المباشرين فى المجتمع المصرى، وتصديهم لأمور الطائفة وحصولهم على مزايا عديدة لصالح القبط، لذا نظر إليهم عامة القبط على أنهم الملجأ والملاذ فى وقت الضيقة، وعلى ذلك جرى العرف بين القبط على اختيار أحد الأراخنة ليكون بمثابة مقدم الأراخنة ورأسهم، حتى وإن وُجد فى نفس الفترة رجال كبار على نفس القدر من النفوذ والمكانة، ولم يكن هذا الاختيار يتم بشكل انتخاب أو ترشيح، بل جرى العرف عليه، فطالما لُقّب أحد أهم الأراخنة بلقب يدل على تقدمه على سائر القبط، وهذا الأرخن كان يعتبر بمثابة رأس الطائفة أمام الحكومة؛ وظهر هذا الأمر بوضوح فى المصادر الكنسية، ويبدو أن هذا التقليد كان متأثراً بطريقة اختيار شيخ البلد من بين كبار الأمراء المماليك.

ويمكننا أن نرصد بسهولة تسلسل رئاسة الطائفة على مستوى الأراخنة فى القرن الثامن عشر على الوجه التالى:

كان على رأس الطائفة فى بداية القرن الثامن عشر المعلم يوحنا أبومصرى «كبير المباشرين ورأس الأراخنة»[١٣] والذى كان مباشراً «بالخزينة العامرة»[١٤] وأصبح من أكبر العاملين بديوان الروزنامة [١٥].

وجاء بعده المعلم جرجس أبو منصور الطوخى «رئيس الكتاب»[١٦]، «الأرخن الرئيس»[١٧]، وكان هذا الرجل مشتغلاً بخدمة الأمير مراد كتخدا مستحفظان[١٨] وتوفى عام ١٧١٨م.

وبعد المعلم جرجس أبو منصور، جاء المعلم لطف الله أبو يوسف مباشر الأمير محمد كدك كتخدا مستحفظان[١٩] ولقب فى السنكسار القبطى «كبير الأراخنة»[٢٠]، وقيل عنه «لم يكن فى زمانه من يعادله ثروة» وتوفى عام ١٧٢٠ [٢١].

[١٣] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الرابعة، ص ١٣٧.
[١٤] وثائق البطريركية، وثيقة ٢٨٦G، تاريخها ١٤ رجب ١١١٦هـ.
[١٥] وثائق بطريركية القبط الأرثوذكس بالقاهرة، وثيقة Z ٥١٨.
[١٦] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الرابعة، ص ١٣٨.
[١٧] تاريخ عمل الميرون مخطوط رقم ١٢٨ طقس/٨٣٩ المتحف القبطى بالقاهرة، ورقة ٣٠ ظهر.
[١٨] وثائق البطريركية، رقم ٣٩٧D.
[١٩] وثائق البطريركية، رقم ٤١D.
[٢٠] كتاب السنكسار، الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين، القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٧٢م، ج٢:ص ٧٢.
[٢١] صالح نخلة: المرجع السابق، الحلقة الخامسة، ص ١٠.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

من نفوذ مخدوميهم فى خدمة مصالح الطائفة، ولا يتسع المقام لرصد أسماء الأراخنة ووظائفهم فى هذه الفترة للتدليل على مدى انتشار القبط فى خدمة أهم أصحاب النفوذ [١٠].

بالإضافة إلى ذلك فان مصادر العصر ترصد أيضاً صفاء العلاقات مع كبار رجال الدين الإسلامى فى هذا العصر[١١].

٢. الثروات الهائلة التى حازوها

تضخمت ثروات المباشرين بشكل ملحوظ فى القرن الثامن عشر، والتفسير الأولى لتضخم هذه الثروات يرتبط بتفسير تضخم ثروات الأمراء، وبالتالى صبت مصادر دخل الأمراء – بنسبة معينة – فى جيوب مباشريهم، ولكن الأمر يحتاج إلى تفسيرات أخرى، عن كيفية إستثمار وتنمية موارد دخل المباشرين، ولكن اللافت للنظر حجم الإنفاق الهائل الذى بذله المباشرون فى خدمة أمور الطائفة [١٢].

[١٠] رصدنا الوظائف المختلفة التى تولاها بعض أراخنة هذه الفترة فى المقالة التالية: مجدى جرجس: إدارة الأزمات فى تاريخ القبط، نموذج من القرن الثامن عشر، (حوليات إسلامية،٣٣)، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة،١٩٩٩م، ص ٥٢-٥٦.

[١١] لدينا أمثلة متعددة على حسن العلاقة مع كبار رجال الدين الإسلامى، بل أن المصادر الكنسية تسجل حكماً عاماً عن علاقة القبط بالمسلمين فى هذه الفترة فتقول: «عاشوا كل هذه المدة مع إخوانهم المسلمين على أحسن حال مشاركين لهم فى السراء والضراء» نقلاً عن كامل صالح نخلة: سلسلة تاريخ الباباوات بطاركة الكرسى الإسكندري، الحلقة الخامسة، مطبوعات دير السريان، ١٩٥٤م، ص٢١، وهذه العلاقات ساهمت فى تسهيل كثير من الأمور التى تتطلب موافقة الشرع عليها، بل وسهلت فض مشكلات شرعية؛ فعلى سبيل المثال نجح المعلم رزق بحسن علاقته مع الفقهاء بتغيير مضمون فتوى تدين أحد النصارى بسب الإسلام، صالح نخلة: الحلقة الخامسة، ص٦٠ ،٦١ وسنذكر هذه الأمثلة أيضاً أثناء حديثنا عن ترميم وتعمير الكنائس، بل أن بعض الأقباط كانوا يعملون مع الأسرة البكرية أصحاب النفوذ الواسع فى القرن الثامن عشر، نذكر منهم: المعلم بطرس يوسف والذى ظل يعمل «مباشر بمنزل بنى الصديق» فى الفترة مابين ١١٦٠هـ حتى ١١٧٨هـ (وثائق البطريركية:G١١، ٤٧٤D، كذلك دميان عبد رب السيد،جرجس ابراهيم «الكاتب كلاهما بمنزل الصديق» (وثائق البطريركية: ٣٦٨D).

[١٢] حاز الأراخنة ثروات هائلة ظهرت فى حجم الإنفاق على أمور الطائفة، التى سترد بعد ذلك.

أضيفت إليه أعباء إدارية ومالية جديدة، تمثلت فى جباية الجزية من أبناء طائفته، لتسليمها إلى الإدارة الحكومية، وابتدأت هذه المسئولية من البابا يوأنس الرابع عشر (رقم ٩٦ من البطاركة) (١٥٧١-١٥٨٦م) وانتهاءاً بالبابا مرقس السادس (رقم ١٠١ من البطاركة) (١٦٤٦-١٦٥٦م)، وهذه المهمة كانت تمثل عبئاً ثقيلاً على البطاركة، حتى أن ديوان الجوالى صادر تركة البابا مرقس السادس، لأنه تبقى عليه مبلغ من قيمة الجزية المقررة على القبط، وبيعت متعلقاته لسدادها، وتكفل أحد المباشرين بسداد الباقى[٨].

أما عن الأراخنة (كبار وجهاء القبط من المباشرين والأثرياء)؛ فطالما لعبوا دوراً ايجابياً لصالح طائفتهم حسبما أتاحته لهم الظروف، وهم دائماً منتشرون فى الجهاز المالى والإدارى للدولة، بالإضافة إلى اشتغالهم مع كبار الأمراء وأصحاب النفوذ، وحتى منتصف القرن السابع عشر، كانوا بمثابة معاونين للبطريرك على قيامه بمهام منصبه [٩].

وبدءاً من منتصف القرن السابع عشر توفرت للأراخنة مقومات عديدة وضعتهم فى الصدارة بالنسبة لطائفتهم ومكنتهم من إحداث نقلة حضارية هامة – هكذا أتصور – فى تاريخ القبط، وهذه المقومات هى:

١. العلاقات الواسعة مع ولاة الأمور

توارث القبط أهم الوظائف الإدارية والمالية فى الدولة، بالإضافة إلى إشتغالهم بخدمة كبار رجال الأوجاقات وكبار الأمراء، وهذا الوضع جعلهم باستمرار على مقربة من صناع القرار فى مصر، وبعد أن تملك رجال الأوجاقات وكبار الأمراء زمام الأمور فى مصر أخذوا يرسخون وينمّون مواردهم الخاصة على حساب موارد الدولة، فكان من الطبيعى أن تتوطد علاقات المصلحة بين رجال السلطة والمباشرين القبط، وأن يستفيد الأراخنة

بسيطة لاتتعدى النطاق الدينى الضيق. حول الصلاحيات والاختصاصات المعطاة للبطريرك القبطى: مجدى جرجس: القضاء القبطى فى مصر، القاهرة،١٩٩٩م. ص ٤٢ وما بعدها.

[٨] محكمة القسمة العربية، سجل رقم ٤٥، م٥٦٦، ص٣٩٨ سنة ١٠٦٦هـ. أشكر الزميل حسام عبد المعطى الذى دلنى على هذه الوثيقة.

[٩] لا يمكننا أن نسحب هذا الحكم على كل فترات العصر الإسلامى، إذ وجدت فترات كان للأراخنة الكلمة العليا فيما يخص شئون الطائفة.

السلطات داخل مصر لصالح رجال الأوجاقات العسكرية، ونافسهم فى ذلك أمراء البيوت المملوكية فى الصراع على السلطة، حتى مالت الدفة باتجاه الأمراء المماليك واستأثروا بمعظم النفوذ بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر[٣].

هذه الأوضاع الجديدة التى حولت السلطة الفعلية إلى أيدي كبار الأمراء ورجال الأوجاقات مكنتهم من الاستئثار بمعظم ثروات مصر؛ إذ استولوا على أهم المقاطعات الحضرية والريفية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، واهتموا بتنمية مصادر دخلهم بوسائل متعددة على حساب خزينة الدولة، وعلى حساب دافعى الضرائب[٤].

هذا التحول السياسى أحدث تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية هامة فى المجتمع المصرى، وتختلف الآراء بشأن تقييم هذه التغيرات وآثارها، ولكنها لاتنكرها.

وفى هذا السياق نتناول شريحة هامة من المجتمع المصرى، لدراسة أثر هذه التغيرات والتحولات عليها، وركزنا هذه الدراسة على القرن الثامن عشر بالتحديد، لاعتقادنا بأن آثار هذه التغيرات ظهرت بوضوح شديد فى هذه الفترة، بعد أن أخذت وقتها من التفاعلات، حتى تمخضت عن أوضاع جديدة.

الدولة، البطريرك، الأراخنة [٥]

بعد الفتح العثمانى لم تتغير النظرة كثيراً إلى وضع القبط فى مصر، حيث لم يشملهم نظام الطوائف المسيحية المعمول به فى بعض الولايات العثمانية الأخرى، والذى بمقتضاه أُعطيت – على سبيل المثال – لبطريرك الروم فى القسطنطينية سلطات واسعة شملت كافة أمور الرعية المسيحية [٦]، بينما أستمر وضع البطريرك فى مصر كممثل شرعى للطائفة القبطية، محكوماً بالأعراف والتقاليد الموروثة فى المجتمع المصرى، والتى ترسخت على مر العصور، وعلى ذلك تُركت له صلاحياته المعمول بها من قبل[٧] ولكن

[٣] نفس المصدر، ص١٨٩. نللى حنا: بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ ترجمة حليم طوسون، القاهرة: العربى للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م. ص١٥.

[٤] نللى حنا: المرجع السابق، ص ١٧ ، ١٨.

[٥] أرخن كلمة يونانية الأصل تعنى: رئيس عائلة، وهذا اللقب أطلق على وجهاء القبط وأعيانهم من قبل الكنيسة، إحتراماً وتوقيراً لهم.

[٦] هاملتون جب: المجتمع الإسلامى والغرب؛ ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٠م، ج٢: ص ٤٣ ، ٤٤.

[٧] لا يمكن بدقة تحديد إختصاصات البطريرك القبطى؛إذ أنها كانت محكومة بالأحوال السياسية والإجتماعية والثقافية السائدة، وعلى ذلك فقد تتسع هذه الصلاحيات لتشمل كافة أمور الطائفة، وقد تتقلص حتى تنحصر فى أمور

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Girğis

مجدى جرجس

أثر الأراخنة على أوضاع القبط فى القرن الثامن عشر

مقدمة

تجمعت عوامل عديدة فى المحيط العالمى فى نهاية القرن السادس عشر، أثرت بشدة على أوضاع الإمبراطورية العثمانية [١]، كما أن الأوضاع الداخلية نفسها فى الدولة العثمانية عانت اضطرابات وصعوبات عديدة فى بداية القرن السابع عشر، أتاحت لعوامل الضعف أن تتسرب تدريجياً إلى هياكل الدولة؛ وخاصة فى البناء العسكرى [٢] وهذه الأوضاع تركت بصماتها على مختلف الولايات العثمانية ومن بينها مصر ولسنا بصدد رصد أوضاع الدولة العثمانية ككل، ولكننا نرى انعكاس هذه الأحوال على مصر متمثلاً فى تحلل مركزية السلطة – إلى حد بعيد – حتى أن السلطة فى عاصمة الإمبراطورية تركت للباشا فى مصر – وهو ممثلها الرسمى – صلاحيات أوسع، فأصبح من حقه تعيين كبار المسئولين فى إدارة البلاد دون الرجوع إلى استنبول؛ فمثلاً أصبح من حق الباشا أن يعين الدفتردار وكذلك الروزنامجى، وهما منصبان من أهم المناصب الإدارية.

ولكن سلطة الباشا نفسه أصبحت شكلية، وتقلصت إلى حد كبير لتتجه إلى مراكز قوى أخرى داخل مصر؛ حتى أنه بدءاً من القرن السابع عشر حدث تحول حقيقى فى

[١] لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، أنظر: نادية محمود: العصر العثمانى من القوة والهيمنة إلي بداية المسألة الشرقية، القاهرة: كلية الإقتصاد والعلوم السياسية، بحث مقدم إلي ندوة «منظور الفكر الإسلامى فى تحليل العلاقات الدولية» ١٩٩٧م. ص٢٧ وما بعدها.

[٢] عراقى يوسف: الوجود العثمانى فى مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، ط١، القاهرة، ١٩٩٦م. ج١، ص ٣٥٧.

AnIsl 34 (2001), p. 23-44 Mağdī Ğirğis